

أصالة الصوتيات الوظيفية عند العرب
the originality of functional phonology among the Arabs

يمينة مصطفى

mostefaiy@hotmail.fr¹ مؤسسة الانتماء (الجزائر)، الإيميل المهني

تاريخ النشر 2021 / 04 / 15	تاريخ القبول 2021 / 03 / 29	تاريخ الارسال 2021 / 01 / 25
Abstract	الملخص	
The functional study of sounds in the Arabic language is considered for the sake of the works accomplished in the field of linguistic studies and is closest to the sound scientific method, since most of them are based on the Qur'anic readings that are the reference document for them, which prompted ancient Arab scholars to contemplate the sounds of the language and observe an accurate note produced at a time Very early is an important study of the Arabic sounds, and we find that they dealt with the voices in combination with each other, and they exposed to the different phenomena, laws and phonological relationships that	تعدّ الدراسة الوظيفية للأصوات في اللغة العربية من أجل الأعمال التي أنجزت في مجال الدراسات اللغوية وأقربها إلى المنهج العلمي السليم، كون أغلبها مبني على أساس القراءات القرآنية التي تعدّ الوثيقة المرجعية لها، والتي دفعت علماء العرب القدامى لتأمل أصوات اللغة وملاحظتها ملاحظة دقيقة أنتجت في وقت مبكر جدًا دراسة مهمة للأصوات العربية، كما نجدهم تناولوا الأصوات مؤتلفة فيما بينها فتعرضوا لما ينتج عن هذا الائتلاف من ظواهر وقوانين وعلاقات صوتية مختلفة كالإدغام والإعلال والإبدال والقلب، وكالتبر والتنغيم والمماثلة والمخالفة وغيرها، وهي من صلب	

result from this coalition, such as compression, accusations, substitution, and heart, such as accent, intonation, analogy, contradiction, etc. Interest in the general and functional phonological studies.	موضوعات الفونولوجيا (الصوتيات الوظيفية).
Keywords : Phonetic;phonology; phonemes; laws phonetic;	كلمات مفتاحية : علم الأصوات العام؛ الصوتيات الوظيفية؛ الفونيمات؛ الظواهر الصوتية، القوانين الصوتية؛

المؤلف المرسل: مصطفى يمينة. الإيميل : mostefaiy@hotmail.fr
y.mostfai@univ-bouira.dz

1. مقدمة:

لقد عرف العرب الدّراسة الصّوتية في وقت مبكّر جدا مع نزول القرآن الكريم ، لما لها من اتّصال وثيق بتلاوته وتجوّيده تحقيقا لعبادة الله عزّ وجلّ. وكان حرصهم على ذلك كبيرا فقراءة القرآن مرتبطة بأهمّ ركن من أركان الدّين الإسلامي وهو الصّلاة ، التي لا تصحّ بدون القراءة الصّحيحة لآيات الدّكر الحكيم فيها. فظهرت الدّراسة الصّوتية العربية مثلها مثل العلوم اللغوية الأخرى في أحضان القرآن الكريم الذي كان الدّافع الأوّل لها.

يتفق علماء اللغة قديما وحديثا على حدّ اللغة بأنّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم على حدّ تعبير ابن جني ، وهو ما تتفق معه اللسانيات الحديثة بأن جوهر اللّغة أصوات ، لكن ليست مجرد أصوات بل هي أصوات متألّفة في قوالب خاصّة وفق نظام مقطعي خاص يشكّل ما يسمّى المفردات اللغوية التي تعتبر في اللسانيات الحديثة أصغر وحدة لغوية دالّة تحمل في طياتها المعاني المختلفة من فم المتكلّم إلى أذن السّامع باعتبار أن الصورة الحقيقة الأولى للّغة هي الصّورة الصّوتية السّمعية أي المنطوقة.

فكان للأصوات نصيب كبير من الاهتمام والدّراسة قديما وحديثا فظهر علم الأصوات بشقيّه الثابت والمتحوّل الفونيتيك والفونولوجيا ، الأول يهتم بذاتية وهويّة الصّوت وجوهره ، والثاني يهتم بحركيّة وتحولات هذا الصّوت في السيّاقات المختلفة ووظيفته فيها .

وإذا كان أغلب العلماء يتفقون على أصالة علم الأصوات عند العرب والهنود ، لكنّهم اختلفوا في إمكانية معرفة العرب معرفة دقيقة بالشقّ الثاني من الدّراسة الصّوتية وهو الشقّ الوظيفي . وهذا ما نسعى أن نتبينه في هذا المقال .

2. علم الأصوات عند العرب :

يتفق أغلب الباحثين على أن الدّرس الصّوتي العربي ممّا لا يجمع ويدرك في شموله من علم واحد ، إذ توزّعت مباحثه على غناها وكثرتها بين اختصاصات علمية مختلفة تمنحه بعض مظاهر الاكتمال والنضج ، فنجد

عند علماء القراءات والتجويد، وعند أصحاب المعاجم الـلغوية خاصة، وعند النحاة والصرفيين كما نجده عند الأطباء والفلاسفة وغيرهم قبل أن يستقل كعلم قائم بذاته.

وإن التأكيد على معرفة القدماء للظواهر الصوتية التي تعرف في مباحث الفنولوجيا أمر اختلف فيه اللغويون المحدثون، فمنهم من اعترف لهم بذلك ورأى أن العرب القدماء قد عرفوا ودرسوا الظواهر الصوتية الوظيفية، ووصفوا الأصوات اللغوية منفردة ومجموعة وصفا دقيقا سبقوا فيه ما توصل إليه العلماء في العصر الحديث بأجهزتهم وأدواتهم، منهم من رأى أن هذا الرأي مبالغ فيه، فرغم أن العرب اهتموا بالأصوات وتوصلوا إلى نتائج هي على اتفاق كبير مع الدراسات الحديثة، لكن هذا لا يعني أبدا أنهم عرفوا الدراسة الصوتية الوظيفية، وأنكروا عليهم حتى مجرد إطلاق مصطلح الصوتيات الوظيفية العربية القديمة .

ومن الذين يشهدون للقدماء بمعرفتهم بهذا العلم —أي الفنولوجيا— نجد حسام البهنساوي الذي يقول: "بل إننا نجد لهؤلاء العلماء إسهامات ثرية، ودراسات فاحصة ووقفة لما يطرأ على الأصوات من تغيرات بسبب كونها في سياق لغوي، أو ما يطلق عليه بالدراسة الفونولوجية في الدرس الصوتي الحديث، حيث أبدع هؤلاء العلماء في حديثهم عن الإدغام وشروطه وأنواعه وقواعده كما أبدعوا في وضع أحوال الإعلال والإبدال والقلب وغير ذلك"¹، وهذا القول هو تأكيد على وجود إشارات وتنبيهات في المؤلفات القديمة لا سيما في الميدان النحوي الصربي، كانت لها ملامح فونولوجية، والتي تتعلق بتجاوز الحروف المكونة للصيغة، وما يطرأ عليها من تغيرات عند وقوعها في سياقات صوتية معينة.

ويضيف حسام البهنساوي أننا "لا نجاوز الحقيقة عندما نقول بأن العلماء العرب قد أدلوا بدلوهم —أيضا— في الحديث عن القيم اللغوية، كما يطلق عليه في الدراسات الصوتية الحديثة الفونيمات التطريزية" الفونيمات الثانوية" وهي التبر والتنغيم والمقاطع الصوتية بأنواعها، الوقفات والسكتات والاستراحات وإن لم يسموها بهذه المصطلحات اللغوية الحديثة"²، وهي كلها من صلب مباحث الفنولوجيا وإن لم يطلقوا عليها مصطلحاتها الحديثة.

وفيما يأتي تتبع موجز لأهم جهود وأعمال العلماء العرب القدامى في مجال الصوتيات عموماً والصوتيات الوظيفية خصوصاً وقد تمّ تصنيفها إلى مدارس -إن صحّ التعبير- حسب العلوم المختلفة التي كان الدرس الصوتي العربي أساساً لها.

3. الصوتيات الوظيفية في الدراسات اللغوية :

3.1. علماء اللغة وأصحاب المعاجم :

تعتبر المعاجم العربية من أهم مصادر التراث الصوتي العربي لأنها تزخر بفيض هائل من الفكر الصوتي عند العرب، وقد تناولت مختلف القضايا الصوتية وذلك إما في مقدمة المعاجم أو في ثنايا المادة اللغوية ضمّتها بين دفتيّها، ولعلّ الحديث عن مدرسة المعجميين الصوتية لا يمكن أن يكون أو يتم دون الحديث عن أعمال الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب أوّل معجم عربي محدّد الأسس وواضح أركان البناء.

3.1.1 الخليل بن أحمد الفراهيدي:

قبل الحديث عن الجانب الصوتي في المعاجم العربية الأولى وعلى رأسها معجم العين نشير إلى أنّ الخليل يعدّ واحداً من العلماء الموسوعيين وجهذاً من جهابذة اللغة والأدب، وقد نبغ في علوم عدّة كعلم اللغة والنحو والعروض والموسيقى والرياضيات وغيرها، وجميع هذه العلوم تشترك في اهتمامها بالصوتيات العربية، وكل علم كان ينظر إلى الأصوات من منظوره الخاص. لكن التجربة الأقرب إلى علم الصوتيات - باعتبارها جامعة لعلوم مختلفة- هي تجربته في مجال علم اللغة وذلك في مؤلّفه الشهير "العين" وطريقة بنائه وترتيبه.

الخليل ومعجم "العين": يعتبر القلب النابض للصوتيات الوظيفية في علم الخليل حيث لم يكن هدف الخليل في مقدمة معجمه دراسة أصوات العربية في ذاتها، وإنما كان يسعى أساساً لمعرفة الخصائص التركيبية أو الفونولوجية لبنية الكلمة العربية، وقد سن مجموعة قوانين تحكم بنية الكلمة وتحقق عربيّتها أو عجميّتها، ولذلك مما نجد في مقدمة معجمه، ملخصاً لقواعد بنية الكلمة العربية، وهو حينما عرض قبل هذا

لخصائص الأصوات المعزولة إنما كان يريد أن يضع يده على الخصائص المميزة لكل صوت من حيث دخوله مع صوت آخر في بنية ما، كما كان يريد أن يستنبط القوانين العامة التي تحكم علاقة هذه الأصوات بعضها ببعض في بنية الكلمة العربية من ناحية، ومن ناحية أخرى لأنه يريد أن يرتب معجمه ترتيباً صوتياً حسب مخارج الأصوات، وهذا يعني أن الوظيفة اللغوية للصوت داخل البنية وعلاقة الصوت بغيره والقوانين العامة الـ "تي تحكم هذه العلاقة كل" ذلك كان هدف الخليل في مقدم معجمه، وهذا كله مدار التحليل الفونولوجي للغة. يقول أحمد محمد قدور بعد عرضه لمقدمة العين: " وهكذا يتضح من خلال ما تقدم أن ما في مقدمة كتاب العين ليس دراسة شاملة أو خاصة بالأصوات لذاتها، بل هي مسوقة لغاية معجمية حددت ما ينبغي التعرض له دون غيره، وأن معظم ما ورد جاء لإيضاح الأبنية وخصائص تركيبها من الوجهة الصوتية التشكيلية"³.

إن اهتمام الخليل بالدراسة الصوتية واضح متميز في مقدمة معجمه التي بسط فيها رؤيته ونظريته الصوتية بفرعها: الفونتيك والفونولوجيا وإن لم يطلق المصطلحين ذاتهما، فمن الفرع الأول حديثه عن مخارج الأصوات وتوزعها في الجهاز النطقي، وذكره كثير من المصطلحات المنتمية إليه كالأحيا ز، والمدارج ومجرى الفم، والحلق، والجوف، واللسان، واللهة وشجر الفم وأسلة اللسان، ونطع الغار الأعلى، واللثة، وغيرها كثير جداً.⁴

ولم يكتف الخليل بالحديث عن الجانب النطقي بذكر أعضاء الجهاز النطقي، وتحديد مخارج الأصوات وما يتصل بها فقط، بل تعداه - كما رأيناه في قوانينه الصوتية المختلفة - إلى الجانب الوظيفي (الفونولوجي) للغة فما التقليلات، ولا قانون الدلالة ولا القوانين الأخرى التي رأيناها سوى صورة من صور الفرع الث"اني للدراسة الصوتية للغة، وهو الفرع الفونولوجي.

وإلى جانب الخليل، نجد الكثير من المعجميين الذين تناولوا في أعمالهم المشكلات الصوتية منهم: "ابن دريد" في معجمه "الجمهرة"، و "الأزهري" في معجمه "تهذيب اللغة"، "كما اتبعه في ذلك" أبو علي القالي في المنهج والطريقة، ولم يخرج عنه إلا في بعض الأمور القليلة التي لا تقلل من هيمنة منهج الخليل على منهج القالي في معجمه البار، من ذلك تسلسل الأصوات..

2.3. علماء الصرف والنحو :

1.2.3. أبو الأسود الدؤلي ونشأة النحو العربي :

من المصادر -أيضا- التي تضمّ مباحث الصّوتيات، نجد المصنّفات النّحوية الصّرفية التي احتوت بين ثناياها كثيرا من ملامح التّراث الصّوتيّ العربي، بل هناك من الدارسين من أرجع أول مبادرة في هذا المجال إلى أبي الأسود الدؤلي (ت69هـ) وهي قبل ظهور المؤلّفات، وذلك حين قام "بوضع ضوابط تحفظ القرآن من اللّحن حيث اختار كاتباً من قبيلة بني عبد القيس، وشرع يتلو عليه القرآن، وقال: "إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فأنقط نقطة فوقه إلى أعلاه، وإن ضمنت فمي فأنقط نقطة بين يدي الحرف، وإن كسرت فأجعل النقطة أسفل الحرف، وإن أتبع ذلك غنة فأجعل النّقطة نقطتين"⁵.

فالنشأة الأولى للنحو العربي متّصلة بالقرآن الكريم، أما نوعية العمل الذي خلفه أبو الأسود، فهو أنّه "جعل نقطة للحرف المفتوح من فوقه (فتحة)، ونقطة للحرف المكسور من تحته (كسرة) ونقطة للحرف المضموم في نهايته من فوق (ضمة) وجعل نقطتين مكانا للتّنين"⁶، وتكمن أهميّة عمله في نقطه للمصحف الشريف ووضع حدّاً للحن الذي اقترب من الكتاب المنزل وكان بذلك وسيلة يهتدي بها القراء إلى الأداء والقراءة الصّحيحين السّليمين لكتاب الله، وبذلك يمكن القول: إن النظام القواعدي (النحو) في مرحلته الأولى نشأ نشأة صوتية بحثة، والمصطلحات حركات الإعراب في اللّسان العربي أساسها الجانب الفيزيولوجي من العملية الصّوتية وهي تمثل نقطة تلاق مهمة بين المستويين الصّوتي والنّحوي للغة.

2.2.3. سيبويه والكتاب :

جاء كتاب (سيبويه) متضمّنا لدراسات غاية في الدقّة والأهميّة، إذ تنوعت بتنوع مادته، منها ما يتعلق باللّهجات (...)، ومنها ما يعرض للقراءات، ومنها ما يتحدث عن ظواهر صوتية مختلفة كأحجام الهمز من تحقيق وتسهيل وهمزة بين بين، والإمالة والفتح وما يتعلق بهما من أحكام والإعلال والإبدال والتعليل الصوتي لهما، إلى غير ذلك من المباحث الصوتية المبثوثة هنا وهناك بين طيّات الكتاب، ويستأثر الجزء الرابع من الكتاب بأجلّ هذه المباحث وهو باب الإدغام الذي استهله (سيبويه) بذكر عدد الحروف

العربية ومخارجها ومهموسها ومجهورها وأصولها وفروعها، وما إلى ذلك مما يدخل في تكوين النظام الصوتي العربي ليغدو أساسا ومرجعا لكل من صنف في هذا الباب من نحاة ولغويين وقراء⁷. ونذكر أنه لم يتناول الأصوات كعلم مستقل، بل تحدث عنها في سياق حديثه عن الصّرف العربي، وبالذات عند حديثه عن ظاهرة الإدغام باعتبار أنّ العوامل الصوتية تؤثر في الصّيغ الصّرفية. حيث ذكر "عدد حروف العربية ومخارجها ومهموسها ومجهورها وأحوال مجهرها ومهموسها، واختلافها، يقول: " فأصل حروف العربية تسعة وعشرون حرفا: الهمزة، الألف، الهاء، والعين، والحاء، والعين، والحاء، والكاف والقاف والصاد والضاد والجيم والشين والياء واللام والراء والتّون، والطّاء والدال والتّاء والصّاد والزّاي والسّين والتّاء والفاء والياء والميم والواو"⁸. ثم يضيف بعض الحروف التي تستحسن في دراسة القرآن فتصبح خمسة وثلاثين يقول "وتكون خمسا وثلاثين بحروف هي فروع، وأصلها من التسعة والعشرين، وهي كثيرة يؤخذ بها وتستحسن في قراءة القرآن والأشعار وهي: النون الخفيفة، والهمزة التي بين بين، والألف التي تمال إمالة شديدة، والشين التي كالجيم، والصّاد التي تكون كالزّاي، وألف التّفخيم، يعني بلغة أهل الحجاز بقولهم: الصّلاة والزّكاة والحياة"⁹، كما هناك إشارة إلى الحروف غير المستحسنة في القرآن والشعر كالکاف التي بين الجيم والكاف والجيم التي كالکاف والجيم التي كالشّين والضّاد الضعيفة، والصّاد التي كالسّين والطّاء التي كالنّاء والطّاء التي كالنّاء والباء التي كالنّاء والباء التي كالنّاء ويرى أنّها لا تتبين إلّا بالمشابهة. وتحدّث عن مخارج الحروف ويرى أنّها ستة عشر مخرجا.

وكانت هذه المباحث الصوتية التي تعرض لها سيبويه تمهيدا لدراسة ظاهرة الإدغام، وهو يقول في هذا الشأن: "وإنما وصفت لك حروف المعجم بهذه الصفات لتعرف ما يحسن فيه الإدغام وما يجوز فيه وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه، وما تبدله استثقلا كما تدغم، وما تخفيه وهو بزنة المتحرك"¹⁰.

وقد كان خير من مثل النحاة في حديثهم عن الأصوات أصدق تمثيل، حيث يعتبر الكثيرون كتابه المصدر الأول لعلم الأصوات العربي، ويضعونه بعد كتاب (العين) مباشرة، إذ لخص فيه أراء أستاذه (الخليل) بدقّة وأمانة في آخر الكتاب، وورث عنه ما ورث وصفا دقيقا لأحوال العربية في مخارجها وصفاتها¹¹.

بالإضافة إلى عنايته بالعلاقة بين الصّوت والدّلالة فرأى -على سبيل المثال- أن كلّ المصادر التي على وزن فعلان تدلّ أصواتها على معناها، فضلا عن اختلاف هذه الأصوات من مكان إلى آخر يقول: "ومن المصادر التي جاءت على مثال واحد حين تضاربت المعاني قولك: النّزوان والنّقران والقفران وإنّما هذه الأشياء في زعزعة البدن، واهتزازه في ارتفاع، ومثل هذا الّلحان لأنه زعزعة وتحرك، ومثله اضطرابات وتحرك، ومثل الغثيان لأنه تحييش وتثور ومثله الخطران واللمعان لأن هذا اضطراب وتحرك، ومثل هذا اللّهيان، والوهجان لأنه يحرك المرء ويثوره فإنّما هو بمنزلة الغليان"¹².

3.2.3. ابن جني وكتابه (سرّ صناعة الإعراب): (ق4هـ)

بقيت مواضيع الصّوتيات متناثرة في مصادر مختلفة، وتعدّدت أسماء العلماء والباحثين في هذا الميدان، إلا أنّ ظهور مصدر مستقل يجمع شتات القضايا الصّوتية، ويضمّ متفرقاتها لم يكن إلا بعد أن قطع البحث اللغوي العربي شوطا هائلا في مسيرته، ليذكر لنا العلماء علما فذا استطاع أن يحدث في هذا المسار منعطفًا هاما وهو ابن جني ت (392هـ) والذي يعدّ المؤسّس الفعلي لعلم الأصوات، وهذا عندما ألّف كتابا مستقلا فيه وهو "سرّ صناعة الإعراب"¹³ بالإضافة إلى كتاب "الخصائص"، والعرب قبل هذا لم تعرف عملا مثله، ولقد تميّزت مؤلفاته أنّها لم تكن جمعا لأفكار السّابقين وآرائهم فحسب، بل احتوت إضافات كثيرة تعبّر عن نظرة ابن جني العلمية الصّائبة ودقّته الفائقة في دراسة اللغة، كما كانت موضّحة لمعالم الدّراسات الصّوتية ففي مقدّمة كتابه "سرّ صناعة الإعراب" يذكر أنه سوف يقوم بذكر أحوال هذه الحروف في مخارجها وانقسام أصنافها، وأحكام مجهورها ومهموسها وشديدها ورخوها وصحيحها ومعتلها ومطبّقها ومنفتحها وساكنها وتحركها"¹⁴، ومما ذكره يمكن القول بأنّه ومنذ البداية استطاع أن يسلك مسلكا مختلفا في علم الأصوات باعتباره ميدان علم قائم بذاته لا يقلّ أهميّة عن الصّرف والتّحو.

من هنا كان الجديد عند ابن جني حين اعتبر دراسة أصوات اللغة علما كغيره من العلوم، وهذا لا يعني أنّ كل ما وضعه من تأليفه واستنتاجه، بل كان ينقل عنّ سبقه، إذ لا "يكاد يخرج فيه عن كلام سيبويه في تعداد المخارج ووصف الحروف، فكثيرا ما يقتبس نصّ العبارات التي جاءت في كتاب سيبويه، ويقف عند حدودها"¹⁵.

بدأ ابن جني كتابه بمقدمة، شرح فيها لفظ الصّوت، لغة واصطلاحاً ثم أتى على تعريف الحرف كذلك، ثم ثلث بالحركة وقال بأن الحركات هي أبعاد حروف المدّ، بعدها بدأ في ذكر حروف العربية وعددها تسعة وعشرين حرفاً، ثم ذكر حروف المعجم مرتبة ترتيباً مخرجياً، لأنه لما تحدّث عنها حرفاً حرفاً، رتبها ترتيباً ألفبائياً واختار ترتيب سبويه على ترتيب العين لاضطراب ترتيب هذا الأخير، بعدها ذكر الحروف المستحسنة وغير المستحسنة ثم عدد مخارج الحروف على مذهب سبويه ستة عشر مخرجاً¹⁶ [كما تطرق ابن جني إلى عدّة مباحث صوتية من خلال كتابه "الخصائص" ومع ذلك فلا يمكن اعتباره كتاباً في الصّوتيات بالمعنى الذي نعرفه عند المحدثين، كون ابن جني تناول فيه حروف العربية ابتداء من الهمزة إلى الياء، مرتبة ترتيباً ألفبائياً حيث كان يتناول الحرف وما يتّصل به من الأحكام الصّوتية والصّرفية، كقوله مثلاً: "الظاء حرف مجهور يكون أصلاً لا بدلاً ولا زائداً... العين حرف مجهور يكون أصلاً وبدلاً، فإنّ كان أصلاً وقع فاء وعينا ولا ما... أمّا البدل فقد بدلت. فكان كتابه (سر صناعة الإعراب) "أول مؤلّف مستقلّ يؤلّف في هذا العلم إذ لم يعرف العرب قبله كتاباً موقوفاً على الأصوات وحدها .

بالإضافة إلى حديثه عن القيمة التعبيرية والدّلالية للأصوات وإن كانت واضحة المعالم في كتابه الخصائص بصورة أكثر دقة وتوسعة في باب "تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني". كما تطرّق ابن جني إلى عدّة مباحث "صوتية في كتابه هذا. وقد سار في دراساته هذه دراسة النحاة للأصوات، إذ اهتمّ هو الآخر بدراسة الأصوات من حيث التركيب وعالج الظواهر الصّوتية كالإدغام والإبدال، والوقف والروم والإشمام والإمالة والإعلال، في هذا المستوى من اللّغة لارتباطها بالجانبين الصّرفي والتركيب.

3.3. علماء القراءات والتّجويد:

يلتقي علم التّجويد مع علم القراءات في ظواهر صوتية كثيرة مثل "القلقلة" و "المدّ" وغيرها، أي في الصور الصّوتية، فالتّجويد أداء والقراءة لفظ، فبينها عموم وخصوص فالقراءة أعمّ والتّجويد فرع من علم القراءات، وينفرد بدراسة مخارج الحروف وصفاتها بينما تنفرد القراءات بفرض الحروف وهو ما يعرف بالفروع القرآنية¹⁷.

و تكمن أهمية القراءات القرآنية من الناحية اللغوية كونها اهتمت بالجانب الصوتي للغة لما له من دور في الحفاظ على القراءة السليمة والصحيحة للقرآن الكريم ، ف "معظم المؤلفات في القراءات اشتملت على بحوث دقيقة قيمة في أصوات اللغة العربية وطبيعتها وصفاتها وأنواعها ومخارجها، والمد وأحكامه ومدته، وما إلى ذلك من مسائل خاصة بالأصوات الخاصة باللغة العربية"¹⁸ ، فالمتبع لدراسة الأصوات عند العرب يجد أنّ نشأتها الأولى كانت على يد المهتمين بتجويد وقراءة القرآن الكريم وذلك منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم، إذ تحدث المجودون عن مخارج الحروف وصفاتها ووصفوها وصفا دقيقا.

اهتمت مدرسة القراء والمجودين بتحديد أعضاء الجهاز النطقي وذكرت الأعضاء المشاركة في النطق بالتفصيل مع وصف الأصوات وصفا دقيقا. واعتنت بحروف العربية كلّها من الألف إلى الياء حسب مخارجها وصفاتها بدقة، وحدّ أصحابها من إخراج الحروف عن نطاقها أثناء التركيب وما يعترضها من العوارض خاصة إذا كانت ساكنة لأن السكون يضعف الحرف ويجعله عرضة للتغيّر والتبدّل، الأمر الذي دفعهم إلى تبيان علاقات الحروف بما يجاورها وما يجانبها مع توضيح هذا التجاور، وقد توصلوا إلى أن هناك مجموعة من التعاملات الصوتية في السياقات الصوتية نتيجة للتأثر والتأثير بين أصوات السياق الواحد، ومن خلال موقعيّة الصوت وما يتطلبه من أداء نطقي بعيدا عن تأثير المجاورات في السياق الصوتي الذي يقبع فيه ذلك الأداء¹⁹.

وتقوم الدّراسة الصوتية في هذه المدرسة ضمن دائرتين هما: دائرة الأحكام التّجويدية وعملية ودائرة الظواهر الصوتية²⁰، وكان اهتمام القراء ومعالجتهم لهذا الأمر لا يعدو تصحيح الأداء بالإعادة والتكرار، إذ ثبت لديهم أن "التّجويد والأداء الحسن أساسهما رياضة الألسن والمعاودة للفظ الملتقي من فم المحسن"²¹، وفي نهاية القرن الثاني الهجري، دخلت القراءات القرآنية مرحلة التخصص العلمي فتعمقت مباحثها وضبطت مصطلحاتها، فأصبحت علما مستقلا بذاته فانتقل علم القراءات إلى مجال البحث في المدونة التي تناثرت بين أفواه المقرئين والمعلّمين لأداء اللفظ القرآني(...) فتمكّنوا من تحديد مفهوم التّجويد وضبطوا مباحثه ومراتبه²².

وعرفوا مصطلحات عديدة كالإدغام والإظهار والإخفاء والإقلاب والمدّ وأحكامه، كما عالجوا الوقف والزّوم والإشمام والمدّ وأحكامه والاختلاس ومّا يعرف بقواعد التلاوة والتجويد، وهي كما تبدو جميعاً قواعد صوتية تتعلق بالشّروط التي ينبغي مراعاتها أثناء قراءة القرآن الكريم. وتعدّ مصنفات التجويد أه مّ مصادر التراث الصّوتي، أدّت دوراً مهمّاً في الحفاظ على النّطق السّليم لأصوات اللّغة العربيّة، ولعل ما يميّز أصحابها عن غيرهم أنّهم حاولوا تقديم منهج تعليمي دقيق للعالم والمتعلّم المتصدّي لتلاوة القرآن الكريم وتعليمه.

ومن أهم كتب القراءات "كتاب السّبعة" لابن مجاهد وكتاب "التيسير في القراءات" لابن خالويه، وفي القراءات الشاذة نجد "كتاب المحتسب في القراءات الشاذة" لابن جني، إذ أفاد مؤلفو كتب القراءات من المصطلحات الصّوتية عند التّحويين العرب، كما أفاد مؤلفو الكتب النحوية هم الآخرين من كتب القراءات²³.

وانصبّ تركيزهم على البحث في الأصوات أثناء تركيبها، وما يترتب عن ذلك من تغيّرات، وكانوا شديدي الاهتمام بالتّلقين والأداء النّطقي الصحيح للأصوات اللّغوية، بل إنّ هذا هو لبّ اهتمام علماء التجويد والقراءات حيث كان القراء يلقّنون الطلبة الأداء الجيّد على جميع المستويات اللّغوية، وعلى رأسها المستوى الصّوتي²⁴.

وعليه فقد وضعت مصنفات علماء القراءة والتجويد بأنّها أكثر الكتب احتفاءً بالمادّة الصّوتية وأكثرها إسهاماً في مجال علم الأصوات والتي ساعدت على تطوّر هذا العلم، وذلك من أجل تحقيق الدقّة في تأدية القرآن الكريم قراءة وتدويناً، إلى حدّ جعل بعض الباحثين يذهبون إلى أنّ هذه العلوم قد انفردت بالدّرس الصّوتي وعملت على إغنائه، وذلك لأنّ علم الأصوات قد استفاد منه علم النّحو عامّة وكتب سيّويه خاصّة، وفي هذا يقول برجستراسر: "كان علم الأصوات في بدايته جزءاً من النّحو ثم استفاد أهل الأداء والمقرؤون منه وزادوا في تفصيلاته الكثيرة المأخوذة من القرآن الكريم"، وعلى هذا عدّ علم التجويد الجانب التطبيقي والوظيفي لكلّ ما سبق ذكره من دراسات صوتية²⁵.

وبذلك أسهم علماء القراءات والتجويد بقدر كبير في الجانب العلمي التطبيقي والتطري لعلم الأصوات، والقراءات القرآنية تعدّ الإطار الواقعي الحقيقي للدراسة الصوتية وذلك لاستنادها للتلقي والمشافهة والسّماع وهي الأسس السليمة في الدراسة اللغوية والصوتية خاصّة.

4.3. علماء البلاغة:

تضم المصنفات البلاغية بين ثناياها حديثاً عن الأصوات لوجود علاقة جد وثيقة بها، وقد احتوت مصنفاتها دراسات هي من صميم علم الأصوات والفونولوجيا خاصة، وهذا في تعريفها للفصاحة، ونسيج الكلمات العربي وتنافر الحروف وائتلافها ومن الذين يستشهد بهم في هذا المجال نذكر ابن سنان الخفاجي في كتابه "سر الفصاحة" والذي يعد أول من تحدث عن ها حديثاً شافياً، وحاول في كتابه هذا تعريف الصوت والتمييز بينه وبين الحرف، وعقد فصولاً موسعة للحديث عن صفات الحروف ومخارجها اهتم بفصاحة الألفاظ في حال أفرادها وحال تركيبها²⁶.

وتحدّث علماء هذه المدرسة عن "الأصوات الأصول والفروع في اللسان العربي، وانطلقوا في ذلك من منطلقات نطقية ولهجية وتعاملية متنوعة"²⁷، وكانوا غير بعيدين في رؤيتهم هذه عن علماء العربية عموماً، ميّزوا بين الحروف التي يستحسن استعمالها في الفصيح والتي لا يستحسن استعمالها فيه. كما ميّزوا أيضاً الأصوات التي لها دور في تحسين النغم سواء كان ذلك في الشعر أو النثر وحدّدوا جملة من الأصوات يستحسن أن تكون في القافية.²⁸

وخالف ابن سنان في ترتيبه للحروف علماء العرب خاصّة سيبويه، وحدّد لها على النحو الآتي:
 "فالأصوات عنده تسعة وعشرون (...) وهي الهمزة والألف والهاء والعين والحاء والغين والخاء والقاف والكاف والضاد والجيم والشين والباء واللام والراء والتون والطاء والدال والتاء والصّاد والزاي والسين والطاء والدال والتاء والفاء والباء والميم والواو"²⁹.
 بالإضافة إلحاحظ في لثابه "البيان والتبيين" الذي له دراسات ومساهمات في مجال الصوتيات، وذلك في تعرّضه لعبوب الخطباء، ول بعض عيوب الكلام بعامة كاللّغة وغيرها.

فتطرق إلى الحروف التي تدخلها اللّغة وعدّد ها إلى خمسة أنواع، وتدرّج في أنواعها من الأحسن إلى الأحقّر، وخصّ الحروف التي تدخلها اللّغة في أربعة أحرف: القاف والسّين واللام والراء³⁰، وتعرّض كذلك للّكنة التي تبدو في كلام الأعجمي إذا نطق العربيّة، كما أنه تعرّض لنسج الكلمة العربيّة واجتماع الحروف.³¹

وبهذا تعتبر المصادر البلاغية مجالاً خاصّاً للبحوث الصّوتية يمكن للدارس الاستفادة منها لفهم كثير من أسرار اللّغة العربيّة ومصطلحات مفاهيمها المعبّرة عنها.

خاتمة البحث :

لقد خطى العرب بالدراسات الصوتية خطوات واسعة، وضربوا فيها بسهم وافر، فشهد لهم بذلك دارسون كثر من الغربيين حتى قال أحدهم: "لم يسبق الأوروبيين في هذا العلم إلا قومان العرب والهنود"³²، ومع أن علم الأصوات لم يعرف بهذا الاسم عند العرب إلا في مرحلة لاحقة، فإنه لم يغيب عن مصنفات المتقدمين من علماء العربية في معجمها ونحوها وصرفها وعروضها وبلاغتها وفي موسوعاتها الأدبية وفي كتب الطب والحكمة والموسيقى والقراءة والتجويد، حيث يمكن تصنيف العلوم التي أسهمت في هذا العلم إلى ثلاثة أصناف:

1- علوم القراءة والتجويد.

1 علوم العربية من معجم ونحو وصرف وبلاغة وعروض.

2 -بالإضافة ل علماء الحكمة والفلسفة والطب الذين كانت مساهمتهم في الشق الأول من الدراسة الصوتية وهو علم الأصوات العام .

وما يمكن ملاحظته في هذا الإطار أن العلماء العرب القدامى استوفوا الجانب النطقي بقوة دون الجانبين الفيزيائي والسمعي الذي لم يكن له نصيب وافر، لاعتماد الجانب النطقي على الملاحظة والذوق الحسي كما كان الشأن مع الخليل وسيبويه وابن جني، في حين عجزوا عن تصوير ما يحدث في انتقال الصوت فيزيائيا واستقباله داخل (الأذن)، لكن رغم هذا تفوق العرب في دراستهم التي مثلت الحجر الأساس الذي بنيت عليه الدراسات الحديثة.

وقد كان للجانب الوظيفي نصيب وافر من الاهتمام والدراسة وعرف العلماء ظواهر صوتية وظيفية كثيرة في اللغة العربية اصطلاحا عليها وإن اختلفوا في تحديدها حسب وجهة نظر العلم موضوع الاختصاص والاهتمام، وهي اختلافات بسيطة لأنها لا تخرج عن دائرة الدرس اللساني العربي عموما. ويمكن القول إن الدراسات الصوتية العربية ارتبطت ارتباطا وثيقا بمعطيات وظيفية مؤدية إلى غايات متنوعة ومختلفة باختلاف دارسيها وعلى وفق اختصاصاتهم، فلم تكن دراسة الأصوات عندهم دراسة هامشية أو

لغرض الترف اللغوي وإنما هي دراسة جادة مرسومة على خطى علمية دقيقة لها أسبابها ومسبباتها ودوافعها وغاياتها.

وأول ما ظهرت الصوتيات الوظيفية كما ذكرنا سابقا ممارسة مع الموجودين وعلماء القراءات الذين نظروا إلى الأصوات نظرة كلية متكاملة سياقية أدائية، وأهم مظاهر هذه النظرة هو الجانب الصوتي الذي تتفاعل فيه أصوات العربية، وأصوات القرآن خاصة، تفاعلا متناسقا منسجما يعبر عن نظام العربية الصوتية المتميز.

استطاعت مدرسة النحاة والصرفيين العرب في أصولها الأولى برئاسة الخليل وسيبويه وابن جني وغيرهم أن تشير إلى الكثير من خصائص وصفات الأصوات، وتمكنوا من دراسة الظواهر الصوتية من حيث التركيب وما يحدث للصوت في بنية الكلمة والسياق اللغوي من تغيرات، تفضي إلى قضايا القلب والإبدال والإدغام والوقف والروم والاشتمام والإمالة والإعلال، وهي كلها قوانين ومسائل صوتية تخص اللغة العربية الفصحى ولهجاتها، وخاصة القراءات القرآنية.

الهوامش :

- ¹ - حسام البهنساوي، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدّرس الصّوتي الحديث، زهراء الشرق، القاهرة، مصر، 2005، ط1، ص05.
- ² - حسام البهنساوي، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدّرس الصّوتي الحديث، ص08.
- ³ - أحمد مُحمّد قدّور، أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدّمة كتاب العين، دار الفكر، دمشق، 1998، طبعة مزيّدة ومنقّحة، ص65.
- ⁴ - يُنظر: الفراهيدي ، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد ، العين، دار الرّشيد للنّشر، 1987، دط، ج1، تحقيق مهدي المخزومي، ابراهيم السامرائي ، ص 58.
- ⁵ - رمضان عبد التّواب، بحوث ومقالات في اللغة، مكتبة الغانجي، القاهرة، 1998، ط2، ص49.
- ⁶ - مكّي درار، الحروف العربية وتبدّلاتها الصوتية، خلفيات امتداد، منشورات اتّحاد الكتاب العرب، دمشق، 2007، دط.ص15.
- ⁷ - محمود فهمي، علم اللغة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2001، دط، ص15.
- ⁸ - سيّويح، أبو بشر عمرو بن عثمان، الكتاب، رّبع عبد السّلام مُحمّد هارون، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982، ص431.
- ⁹ - سيّويح، الكتاب، ج4، ص431.
- ¹⁰ - سيّويح، المرجع السابق، ج4، ص436.
- ¹¹ - محمود فهمي، علم اللّغة، منشورات اتّحاد الكتّاب العرب، دمشق، دط، 2001، ص15.
- ¹² - سيّويح، الكتاب، ج4، ص282.
- ¹³ - أبو الفتح عثمان بن جني ، سرّ صناعة الإعراب، تح حسن الهنداوي، دار العلم، دمشق، 1985، ط1، ص1 وما بعدها.

- 14 - محمد محي الدين أحمد محمود، في علم اللغة، ص 65.
- 15 - زين كامل، الخويسكي، نجلاء محمد عمران، مختارات صوتية، ص 81.
- 16 - ينظر، ابن جني، سر صناعة الإعراب، ص 1-20.
- 17 - أبو عبد الودود، السيل العرم العوام في تجويد كلام الله العلام، بطريق الأئمة الأعلام، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ط2، ص15 وما بعدها.
- 18 - محمد محي الدين أحمد محمود، في علم اللغة، ص 27.
- 19 - ينظر: علاء جبر محمد، المدارس الصوتية عند العرب، ص 122 .
- 20 - علاء جبر محمد، المرجع السابق، ص 121 وما بعدها.
- 21 - جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، الإتيان في علوم القرآن، عالم الكتب، بيروت، دت، دط، ج 1، ص100.
- 22 - المهدي بوروي، المصطلحات الصوتية عند النحاة واللغويين العرب (رسالة ماجستير)، جامعة حلب، 1989، ص 37 وما بعدها.
- 23 - ينظر: محمد فهمي حجازي، البحث اللغوي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دط، دت، ص16-17.
- 24 - المبرز، 2002، ع16، محمد الحباس، الصوتيات العربية بين النحاة العرب وعلماء التجويد، ص21.
- 25 - حسام البهناوي، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدّرس الصوتي الحديث، ص5-6.
- 26 - بئينة أيوب، أحمد محمود المصري، قضايا بلاغية، الوفاء لدينا للطباعة والنشر، الإسكندرية، 2005، ط1، ص28.
- 27 - علاء جبر محمد، المدارس الصوتية عند العرب، ص187.
- 28 - ينظر، علاء جبر محمد، المرجع السابق، ص195.

- 29 - علاء جبر مُجَدِّد، المرجع السابق، 165.
- 30 - ينظر، أبو عثمان الجاحظ عمر بن بحر، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي، عمان، 1998، دط، ص 15 وما بعدها.
- 31 - أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص 97.
- 32 - حسن الزملي، الأصوات عند العرب، ص 74.

قائمة المراجع:

المؤلفات:

- أيوب، بثينة، أحمد محمود المصري (2005) ، قضايا بلاغية، الوفاء لدينا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط1.
- ابن جني، أبو الفتح عثمان، (1954)، سر صناعة الإعراب ، دار مصطفى البابلي الحلبي، مصر، ط1، ج1. تحقيق مصطفى الشفا، مُجَدِّد الزقاق.
- البهنساوي ، حسام، (2005)، الدراسات الصوتية عند العلماء العرب والدرس الصوتي الحديث، زهراء الشرق، القاهرة، مصر، ط1.
- الجاحظ ،أبو عثمان عمرو بن بحر،(1998) البيان والتبيين، مكتبة الخانجي، عمان، دط .
- حجازي، محمود فهمي،(دت) البحث اللغوي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، دط.
- درار ،مكي، (2007) الحروف العربية وتبدلاتها الصوتية، خلفيات امتداد، مشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط.
- الزملي ،حسن،(200) الأصوات عند العرب، دار السلام للطباعة والنشر، الإسكندرية، ، دط.
- سلم، جميل وحسن نور الدين،(1990) الدليل إلى البلاغة وعروض الخليل، دار العلوم العربية، بيروت، ط1.

- سيبويه، أبو بشر عمر بن عثمان بن قنبر، (1982)، الكتاب، دار الكتب العلمية، ط2، ج4، تحقيق عبد السلام هارون.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، (دت)، الإتيقان في علوم القرآن، عالم الكتب، بيروت، ج1.

- شاب الله، أبو عبد الودود، مصطفى بن القاسم، (2006)، السيل العرم العوام في تجويد كلام الله العلام، بطريق الأئمة الأعلام، وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ط2،

- عبد التواب، رمضان، (1998)، بحوث ومقالات في اللغة، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2.

- عبد التواب، رمضان، (1985) المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2.

- الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد، (1987)، العين، دار الرشيد للنشر، دط، ج1، تحقيق مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي.

- فهمي، محمود، (2001)، علم اللغة، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط.

- ،قدور، أحمد مجد، (1998)، أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين، دار الفكر، دمشق، طبعة مزيده ومنقحة.

الأطروحات:

بوروية، المهدي، (1989)، المصطلحات الصوتية عند النحاة واللغويين العرب، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب، جامعة حلب، سوريا.

المقالات:

- الزايعي، بدر الدين قاسم، (1984)، الصوتيات عند ابن جني، التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، ع15-16، الصفحات

- الحباس، محمد، (2002)، الصوتيات العربية بين النحاة العرب وعلماء التجويد، المبرز، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر. ع16.